مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩
وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا
مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ
ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ
٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ
وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ
سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣

سُورَةُ القَصَصِ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ
مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٣ إِنَّ
فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ
مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ
فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥

[٨٩] ذكر جل وعلا الفائزين يوم القيامة وبين أنهم هم الذين جاءوا بالتوحيد وآمنوا بالله وعبدوه وحده وعملوا الأعمال الصالحة، وهؤلاء يجازيهم الله بما هو خير لهم من هذه الأعمال، وهو جنة عرضها كعرض السماوات والأرض، وأنهم يوم الفزع الأكبر آمنون مطمئنون.

[٩٠] ثم ذكر سبحانه الخاسرين وبين أنهم هم الذين جاءوا بالشرك والأعمال السيئة، وهؤلاء جزاؤهم أن يكبَّهم الله علىٰ وجوههم في النار يوم القيامة، ويقال لهم علىٰ سبيل الزجر: ما حل بكم من العذاب والنكال كان بسبب إشراككم بالله وإجرامكم وأعمالكم الفاسدة.

[٩١] وقل يانبي الله للناس: إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة، وهي مكة حرسها الله وحفظها، التي حرم الله علىٰ خلقه أن يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظلموا فيها أحدًا، وهو سبحانه رب كل شيء ومليكه، وقل لهم أيضًا: وأُمرت أن أكون من المنقادين لأمره، المبادرين لطاعته.

[٩٢] وقل لهم أيضًا: وأمرت أن أتلو القرآن علىٰ الناس، فمن اهتدىٰ إلىٰ الحق الذي جئت به فإن نفع ذلك وجزاءه يعود إليه، ومن ضلَّ عن طريق الحق فقل له يانبي الله: إنما أنا نذير للمكذبين الضالين من عذاب الله وعقابه، وليس بيدي هدايتكم أو إكراهكم علىٰ الإيمان.

[٩٣] ثم ختم جل في علاه السورة بأمر نبيه محمدٍ ﷺ أن يقول: الحمد لله، أي: الثناء كله والفضل كله لله تعالىٰ وحده، وسوف يريكم سبحانه آياته الدالة علىٰ وحدانيته وقدرته فتعرفون صدقها، وما ربك يانبي الله بغافل عما يعمله ويقوله الناس لك، فإنه لا يخفىٰ عليه شيء من أعمالهم؛ فاستمر في دعوتك وبلغ ما أمرت به فإن العاقبة لك وللمؤمنين.

وكلمة: ﴿سَيُرِيكُمۡ﴾، أي: سوف يريكم، وهي تدل علىٰ أن آيات عظمة الله وقدرته وتفرده سوف يستمر ظهورها في كل الأزمنة المقبلة.

سورة القصص

سورة القصص مكيّة وآياتها ثمان وثمانون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأت السورة بقوله: ﴿تِلۡكَ﴾ إشارة إلىٰ فخامة آيات هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله علىٰ نبيه ﷺ، وإشارة إلىٰ أنها آيات بينات واضحات، وضحت أحكام الله وشرائعه وأوامره ونواهيه، وأمور الدنيا والآخرة.

[٣] ثم بين سبحانه أنه سوف يتلوا علىٰ نبيه ﷺ شيئًا من خبر موسىٰ وفرعون؛ وهذه التلاوة كلها حق وصدق لا لبس فيها ولا شكوك؛ وهي لقوم يصدقون بهذا القرآن ويعملون بما فيه من أحكام ومواعظ؛ لأنهم هم المنتفعون بما يُتلى عليهم والمستزيدون به نورًا وصلاحًا واستفادة.

[٤] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن فرعون طغىٰ وتكبر في أرض مصر، وتجاوز كل الحدود في غروره وظلمه، وجعل أهلها طوائف متفرقة تابعة له، ثم اختص طائفة من هذه الطوائف وهم بنو إسرائيل بالإذلال والقهر والظلم؛ لأنهم كانوا وزراء وخدام للحكام الذين من قبله، ومن صور الإذلال التي قام بها أنه صار يذبِّح أطفالهم، ويستعبد رجالهم ونساءهم، ولهذا كان فرعون من المفسدين الذين عاثوا في أرض مصر فسادًا وظلمًا، حتىٰ وصل به الأمر أن رفع نفسه فوق البشر؛ وحيث إن كلمة الله هي العليا، وإن العز والسيادة إذا لم تكن في ظل الله وحسب تعليماته فإن مصيرها للزوال؛ فكانت نهاية فرعون إلىٰ الزوال بأن أغرقه الله في البحر هو وجنوده أجمعون.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أهلك فرعون الطاغية الظالم ليتفضل سبحانه علىٰ الذين استضعفهم وأذلهم فرعون من بني إسرائيل؛ فيجعلهم قادة وملوكًا في الخير، ويجعلهم الوارثين للأرض بعد هلاك هذا الطاغية المجرم وقومه الظالمين. وهكذا تم ما أراد الله؛ فقد جعل الله فرعون نفسه وزوجه يتوليان رعاية موسىٰ وتغذيته إلىٰ أن بلغ رشده واستوىٰ وقتل القبطي، ثم هرب إلىٰ مدين خوفًا من المطالبة بدم القبطي؛ حيث التقىٰ بالرجل الصالح؛ الذي يقال: إن اسمه شعيب؛ فاتفق معه علىٰ عقد عمل والزواج من ابنته، ثم عاد إلىٰ مصر نبيًّا ورسولًا داعيًا فرعون للتوحيد، حتىٰ كانت النهاية المعروفة لفرعون.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا
مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ
أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
وَلَا تَحْزَنِيٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ
فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾
وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ
عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾
وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ
أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ
﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

[٦] ثم أخبر جل وعلا أنه يريد أن يمكن لبني إسرائيل في الأرض – بعد استضعافهم فيها –، ويُرِيَ فرعون ووزيره هامان، وبقية جنودهما ما كانوا يحذرون ويخافون منه من زوال ملكهم علىٰ يد بني إسرائيل.

[٧] ثم أوحىٰ جل وعلا إلىٰ أم موسىٰ وحي إلهام أن ترضعه، فإذا خافت عليه من فرعون وجنده؛ فعليها أن تلقيه في نيل مصر بعد وضعه في صندوق خشبي، وأوحىٰ إليها أن لا تخاف عليه، ولا تحزن، فإنه في عناية الله وفي حفظه، وسيحفظه الله لها، وسيرده إليها، وسيجعله من المرسلين.

[٨] ففعلت أم موسىٰ ما أُمرت به، فوصل هذا الصندوق إلىٰ الشاطئ المقابل لقصر فرعون؛ فأخذه جنوده؛ ليسلموه لفرعون، ولم يعلموا أن أخْذَهم له سيكون حزنًا، وسببًا في هلاكهم، ثم بين سبحانه أن فرعون ووزيره هامان وجنودهما – جميعًا – كانوا خاطئين آثمين، مشتركين في الإثم والظلم والكفر.

قال المفسرون: اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾، هي لام العاقبة، وهم أخذوه لغير ذلك؛ كما قالت امرأة فرعون في الآية التالية: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنهم إنما أخذوه ليكون قرة عين لهم،؛ فكان عاقبة ذلك أن كان لهم عدوًّا وحزنًا.

[٩] ولمّا رأت امرأة فرعون هذا الطفل الموجود داخل الصندوق رقّت له، وأُلقي في قلبها حنانٌ عليه، فقالت لفرعون وجنوده: لا تقتلوا هذا الولد، وأبقوه لنا، ليكون قرّة عينٍ لنا، ويدخل علينا السرور بسببه، ويكون من خدَّامنا، أو نرقِّيه فنجعله من أولادنا، ثم بين سبحانه أن امرأة فرعون وجنوده قالوا ذلك وهم لا يشعرون ولا يعلمون أن هلاك الطاغية فرعون وجنده سيكون علىٰ يديه.

[١٠] ثم أخبر سبحانه أن أم موسىٰ اشتد قلقها علىٰ ابنها، وأصبح فؤادها خاليًا من كل شيء إلّا من التفكير في ابنها موسىٰ؛ حتىٰ أنها كادت – من لهفها عليه، وشوقها إليه – أن تُظهِرَ للناس حزنها لولا أن ثبتها الله وألهمها الصبر؛ لتكون من المؤمنين بوعد الله.

[١١] ثم قالت أم موسىٰ لأخته: اذهبي فقصِّي أثره، وابحثي عن حاله دون أن يشعر بك أحد؛ ففعلت، فرأته عن بُعْد مُسْتَرِقةً النظر إليه، وهم لا يشعرون بها، ولا يعرفون أنها أخته.

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أن موسىٰ امتنع عن الرضاعة من أي مرضعةٍ، وفي هذه الأثناء حضرت أخته ورأتهم وهم يعرضون علىٰ موسىٰ الرضاعة فيمتنع؛ فبدأوا بالبحث عن مرضعةٍ له، فانتهزت أخته الفرصة فقالت لهم: ألا أخبركم بأهل بيتٍ يتكفّلون به وبإرضاعه، وسيحرصون عليه وينصحون له ويحفظونه!!

[١٣] فما كان من فرعون وزوجته إلا أن استجابا لها؛ فدلتهم علىٰ بيت أم موسىٰ؛ فرجع موسىٰ إلىٰ أمه كما وعدها الله، كي تقرّ عينها به، وتحنو عليه وترضعه، وكي لا تحزن علىٰ فقده وبُعْدِه عنها، وكي تعلم أن وعد الله حق، لا مرية فيه ولا شكّ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون بذلك؛ فكافأها الله برد ابنها إليها وزيادة علىٰ ذلك أن تأخذ أجرًا علىٰ إرضاعه.

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ
فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ
مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ
هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَن أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ
إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ
﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ
يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾

[١٤] ولمّا شبَّ موسىٰ وبلغ أشدّه من القوة والعقل، واستوىٰ في خلقته؛ أعطاه الله الحكمة وهي النبوة، وكذلك أعطاه العلم، ثم بيَّن سبحانه أنه يجزي المحسنين من عباده أحسن الجزاء.

[١٥] ثم دخل موسىٰ المدينةَ في وقتٍ تقل فيه حركة التنقل، فوجد فيها رجلين يقتتلان ويتخاصمان ويتضاربان، أحدهما من بني إسرائيل من قوم موسىٰ، والآخر من قوم فرعون، فاستنجد الذي من بني إسرائيل بموسىٰ وطلب منه نصرته علىٰ الذي من قوم فرعون؛ فاستجاب له موسىٰ فضربه موسىٰ دافعًا إيّاه، فمات الرجل من هذه الدفعة، ولم يكن موسىٰ يَقْصِد قتْلَه، فندم علىٰ ذلك أشدَّ الندم، وقال: هذا من تزيين الشيطان ووسوسته وتهييجه، إن الشيطان عدوٌّ ظاهر العداوة لبني آدم، مضلٌّ عن الحق والرشاد، بيِّن العداوة ظاهر الإضلال.

[١٦] ثم التجأ موسىٰ عليه السلام إلىٰ ربه في الحال قائلًا: يارب إني ظلمتُ نفسي، وأخطأتُ بقتلي هذا الرجل الذي لم أرد قتله، فاغفر لي، فاستجاب الله له فغفر له، وعفا عنه، إن الله كثير المغفرة لِمَن طلب منه المغفرة، وهو سبحانه الرحيم بعباده الصادقين بالتوبة والإنابة إليه.

[١٧] ثم قال موسىٰ عليه السلام: ربّ كما أنعمتَ عليَّ بقوة الجسم، وقبلتَ توبتي، وغفرتَ ذنبي؛ فلن أكون معينًا لأحدٍ من المجرمين علىٰ إجرامه وإفساده، قال ذلك: إتمامًا لتوبته.

[١٨] وأصبح موسىٰ عليه السلام في المدينة خائفًا ممّا فعل، يترقب ما الذي سيحدث له، وبينما هو كذلك إذا بالذي طلب نجدته بالأمس ينادي عليه مستغيثًا به من ظلم رجل آخر من قوم فرعون، فلمّا اقترب منه قال له موبِّخًا إيّاه: إنَّك لظاهر الغواية، بيِّن الضلال كثير المشاكسة.

[١٩] فلمّا اقترب موسىٰ يريد نجدة الرجل الذي من قومه قال له الذي هو من قوم موسىٰ: أتريد أن تقتلني ياموسىٰ كما قتلت رجلًا بالأمس، قال ذلك ظنًا منه أن موسىٰ سوف يقتله لأنه قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ ثم قال له: وإنك ياموسىٰ تريد أن تكون جبَّارًا في الأرض، تفعل ما تشاء، وتقتل من تشاء، وما تريد ياموسىٰ أن تكون من المصلحين بين الناس؛ فشاع الخبر وعرف قاتلُ الذي من قوم فرعون، فتآمروا علىٰ قتل موسىٰ.

[٢٠] وجاء رجل ناصحٌ مشفقٌ من أقصا المدينة يسعىٰ سعيًا شديدًا حتىٰ لحق بموسىٰ عليه السلام فقال له: إن أشراف القوم ورؤوسهم يتآمرون عليك لقتلك، ويتكلمون في شأنك، فاخرج من هذه المدينة، إني لك من الناصحين، وعليك من المشفقين.

[٢١] فامتثل موسىٰ عليه السلام نُصح الرجل، وخرج من المدينة خائفًا من أن يدركوه فيقتلوه، مترقِّبًا طلبهم إيّاه ولحوقهم به، فدعا الله جل في علاه، وهو في هذه الحالة قائلًا: رب نجّني وأنقذني من القوم الظالمين المتجاوزين حدودهم.

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ
ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ
مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا
شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا
تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ
لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا
يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ
﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ
وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ
قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

[٢٢] ولمّا توجه موسىٰ عليه السلام إلىٰ بلاد مدين – جنوبي فلسطين – قال داعيًا ربه: يارب اهدني إلىٰ أفضل الطرق إلىٰ مدين وأيسرها، فاستجاب الله دعاءه، فوصل إلىٰ مدين سالمًا.

[٢٣] ولمّا وصل موسىٰ عليه السلام إلىٰ ديار مدين وجد عند مائها جماعة كبيرة من الناس يسقون مواشيهم، ووجد خلفهم: امرأتين تذودان غنمهما وتحبسانها عن الناس، لضعف حالهما وعجزهما عن مزاحمة الرجال؛ فرقّ لحالهما. ثم سألهما: ما شأنكما؟! فقالتا: لا نرغب في مزاحمة الرجال، ولا نستطيع أن نسقي حتىٰ يسقي الناس ويخلو لنا المكان، وأبونا شيخٌ كبيرٌ لا قوّة له علىٰ السقي.

[٢٤] فسقىٰ موسىٰ عليه السلام لهما، ثم انصرف إلىٰ ظل شجرة يستظل بها، ثم قال داعيًا ومناجيًا ربَّه، وطالبًا منه الرزق: ربّ إني مفتقرٌ للخير الذي تنزله عليَّ أيًّا كان ذلك الخير وإني ألتمس الأجر والثواب منك.

[٢٥] فرجعت المرأتان إلىٰ أبيهما وقصّتا عليه خبر الذي سقىٰ لهما، فأمر إحداهما أن تذهب وتدعوه إليه، فوصلت إليه، وقالت له في استحياء: إن أبي يدعوك ليكافئك علىٰ إحسانك لسقيك لنا، فلمّا حضر موسىٰ عند أبيهما؛ قصَّ عليه قصته، فقال له بعد أن انتهىٰ: لا تخف ياموسىٰ، وليطمئنَّ قلبك، فإن الله نجَّاك من القوم الظالمين المتجاوزين حدودهم، فإنهم ليس لهم سلطان علىٰ هذا البلد الذي وصلت إليه.

[٢٦] ثم قالت إحدىٰ المرأتين لأبيها: ياأبتِ استأجر موسىٰ لكي يرعىٰ ويسقي لنا غنمنا، فإنه نعم الأجير الذي يملك صفتي القوة والأمانة.

[٢٧] ثم قال صاحب مدين لموسىٰ عليه السلام: إني أريد أن أزوجك إحدىٰ هاتين البنتين، ويكون مهرها: أن تكون أجيرًا عندي، ترعىٰ ماشيتي ثمان سنين، وإن زدت المدة لعشر سنين فهذا إحسانٌ منك إليَّ، وما أريد أن أشق عليك فألزمك بالعشر سنين، ستجدني ياموسىٰ إن شاء الله من الصالحين الذين يوفون بعهدهم.

[٢٨] فأجابه موسىٰ عليه السلام قائلًا: لقد وافقت علىٰ هذا العقد الذي ذكرته، والتزمتُ به، فأي المدتين أتممت فقد وفَّيتُ بالعقد، والله علىٰ ما اتفقنا عليه من هذا العقد شهيد وحافظٌ ومطَّلعٌ علينا.

* فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ
ٱلطُّورِ نَارًا ۖ قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ
ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا
جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ
إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ
فَذَانِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ۚ إِنَّهُمْ
كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾
قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

[٢٩] ولما أتم موسىٰ عليه السلام مدة عقد الخدمة وسار بزوجته متجهًا إلىٰ مصر رأىٰ نورًا صادرًا من جانب الطور، فظن أنه صادر من نار؛ فطلب من زوجه الانتظار لأنه رأىٰ نارًا فيريد أن يذهب إليها لعله أن يأتي منها بخبر يفيدهم في رحلتهم؛ فيوضح لهم الطريق إلىٰ مصر، أو يجلب لهم قطعة من النار يستدفئون بها؛ حيث كان الجو باردًا. وقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾؛ يفيد أنه ضل الطريق، أو أنه كان شاكًّا في الطريق فأراد التأكد من الطريق الصحيح.

[٣٠] فلما أتىٰ موسىٰ عليه السلام النور الذي خلقه الله حصلت المفاجأة الكبرىٰ التي حصل بها الدفء والهدىٰ له ولأهله ولأمته؛ حيث ناداه الله من جانب الوادي الأيمن لموسىٰ في البقعة المباركة من جانب الشجرة، فقال له: يا موسىٰ تنبه أن الذي يخاطبك هو الله ربك، ورب الناس أجمعين.

[٣١] ثم طلب منه جل وعلا أن يُلقي عصاه ليجري له التجربة علىٰ المعجزة التي سوف يعرضها علىٰ فرعون وقومه وبني إسرائيل إثباتًا لنبوته وأنه رسول الله، فلما رأىٰ العصا تحولت إلىٰ حية تسعىٰ ورآها تضطرب كأنها جان ولَّىٰ هاربًا منها ولم يلتفت، فناداه ربه: وأمره أن يثبت ولا يخاف لأنه محفوظ من قِبَل الله، وأنه من الآمنين منها ومن غيرها.

[٣٢] ثم أمره جل وعلا أن يدخل يده في جيبه - أي: في فتحة قميصه من عند الصدر - فإنها ستخرج بيضاء ناصعة البياض من غير مرض كالبرص ونحوه، وإذا خفتَ يا موسىٰ فاضمم عضدك إلىٰ جنبك؛ يزول ما بك من خوف ورهبةٍ، وتسكن نفسك وتطمئنّ؛ حيث ترجع يدك كما كانت، فهاتان - أي: آية العصا، واليد البيضاء -: حجَّتان قاطعتان، ودليلان ظاهران، ومعجزتان خارقتان تدلّان علىٰ نبوتك ورسالتك، أعطيناكهما برهانين علىٰ صدقك في دعوتك فرعون وأشراف قومه للإيمان بالله، واتباع أمرك؛ لأنهم كانوا قومًا كافرين خارجين عن طاعة الله، والإيمان به.

[٣٣] فتحمل موسىٰ عليه السلام الرسالة، ثم عرض علىٰ الله مشكلته فقال: يا رب إني كنتُ قد قتلت منهم نفسًا خطأً فأخاف إن ذهبتُ إليهم أن يقتصوا مني وأن يقتلوني.

[٣٤] ثم قال: ويا رب هذا أخي هارون أفصح مني لسانًا، وأبينُ مني كلامًا، فأرسله معي معينًا لي يساعدني ويصدّقني، إني أخاف أن يكذّبوني.

[٣٥] فاستجاب جل وعلا لطلبه، وقال له: سنقويك يا موسىٰ أنت وأخاك الذي منحناه النبوة حسب طلبك، وسوف نجعل لكما عزة ومنعة، قال جعفر: هيبة في قلوب الأعداء، ومحبة في قلوب الأولياء؛ فلا يصلون إليكما بسجن أو بعذاب، وستكون لكم الغلبة والنصر بإذن الله؛ بسبب آياتنا وما دلت عليه من الحق، وفي هذا بشارة وتثبيت لهما.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ
مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦
وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن
تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٣٧
وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨
وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠
وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
لَا يُنصَرُونَ ٤١ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ
وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا
مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ
بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٣

[٣٦] فلما أتىٰ موسىٰ ومعه أخوه هارون إلىٰ فرعون وملئه وعرض عليهم الرسالة، والآيتين العصا واليد اللتين تدلان علىٰ صدق موسىٰ؛ فغلبت عليهم الشقاوة والكبرياء؛ مع أنَّ فرعون وملأه عرفوا أنها حق في قرارة أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل:١٤]، وبعد أن رأوا هذه الآيات قالوا لموسىٰ علىٰ سبيل العناد: ما هذا الذي جئت به ياموسىٰ إلا سحر أفتريته كذبًا وباطلًا، ولم نسمع مثل دعواك الرسالة عن آبائنا الأولين.

[٣٧] ثم إن موسىٰ عليه السلام قال لفرعون: اعلم يافرعون أن ربي أعلم بمن جاء بالهدىٰ والحق، وأعلم بمن تكون له النهاية الحسنة والعاقبة المحمودة في الدار الدنيا والآخرة، وقد اقتضت سنة الله جل وعلا بأن الظالمين لن يفوزوا بمطلوبهم.

[٣٨] ثم إن فرعون أخذته العزة بالإثم، واستولت عليه الشقاوة، فقال مستخفًّا بقومه: ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله يستحق العبادة غيري؛ فاجعل لي ياوزيري هامان لبنًا من فخّار، وابنِ لي بناءً عاليًا؛ لعلي أصل إلىٰ السماء فأنظر بعيني إلىٰ إله موسىٰ الذي يدعو الناس إلىٰ عبادته، وإني لمتأكد بأنَّ موسىٰ من الكاذبين الذين يكذبون في أقوالهم.

[٣٩] فاستكبر فرعون هو وجنوده في أرض مصر بغير الحق، واعتقدوا أنهم بعد موتهم لن يبعثوا، وليس عليهم يوم القيامة حساب أو عقاب.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أنه أخذ فرعون وجنوده بالعقاب الأليم؛ حيث ألقاهم جميعًا في البحر، ثم انطبق البحر عليه وعلىٰ قواته وجنوده وملئه فكانوا من المغرقين، فانظر يانبي الله نظر تدبر واعتبار كيف كانت نهاية هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بربهم، فالحمد لله الذي ينتقم من الطغاة في الدنيا، ويُعد لهم العذاب الأليم في الآخرة.

[٤١] وجعل جل وعلا فرعون وقومه من أئمة الخزي الذين يُدعون إلىٰ نار جهنم، ويوم القيامة لا يجدون من ينصرهم، ولا من ينجِّيهم من عذاب الله الشديد.

[٤٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أَلْحق فرعون وقومه في هذه الحياة الدنيا لعنةً تلازمهم، وذلّةً تلحق بهم، وأما يوم القيامة فهم من المبعدين من رحمة الله، ومن أشد الناس عذابًا.

[٤٣] ثم يخبر جل وعلا أنه أنزل التوراة علىٰ موسىٰ بعد إهلاك فرعون ومن معه، وإهلاك أمم قبله قد استعصت علىٰ رسل الله؛ مثل قوم نوح وهود وصالح، ثم بين سبحانه أن هذه التوراة التي أنزلها علىٰ موسىٰ عليه السلام فيها بصائر لبني إسرائيل تنير القلوب التي تطلب الحق وتتبعه، وفيها الهداية والنور لهم، ورحمة لمن عمل بها منهم، ولعلهم يتذكرون نعم الله عليهم فيكونون من الشاكرين.

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ
مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ
ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ
ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾
وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟
رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ
مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ
﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ
أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ
هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

[٤٤] ثم يقول جل وعلا لنبيه محمدٍ ﷺ: وما كنت موجودًا عند جبل الطور في الجانب الغربي من موسىٰ، عندما كلم الله موسىٰ عليه السلام، وكلفه بالأوامر والنواهي، وما شهدت ذلك حتىٰ تقصه علىٰ قومك، ولكنه من علم الغيب الذي أخبرناك به.

[٤٥] واعلم يانبي الله أن الله أنشأ من بعد موسىٰ أممًا فطالت بهم الحياة وامتدت؛ فنسوا العهود واندرست الشرائع وانقطع الوحي؛ فجاء الله بك وجعلك رسولًا، وأوحىٰ إليك خبر موسىٰ وغيره، مع أنك لم تكن مقيمًا في أهل مدين تقرأ عليهم كتاب الله فتعرف قصتهم وتخبر بها، ولكنك رسول يوحىٰ إليك نبأ الرسل من قبلك ليثبت الله به فؤادك، وتكون شهادة علىٰ رسالتك، وعبرة للمعتبرين.

[٤٦] ثم بين سبحانه لنبيه ﷺ أنه ما كان قريبًا من جبل الطور حين نادىٰ الله موسىٰ عليه السلام وكلّمه، وأنه ما شاهد بنفسه تفاصيل ما قصَّ الله عليه من قصته، ولكن الله أخبره بذلك وأعلمه به؛ وأرسله لقومه رحمةً منه سبحانه؛ لينذرهم ويذكرهم، فإنهم ما جاءهم من نذير من قبله، ولعلَّهم يتذكرون ويتعظون بإنذاره.

[٤٧] يقول جل وعلا عن مشركي العرب وقريش: لو حلَّت بهم مصيبة من العذاب عقوبة لهم بسبب ما اقترفوه من الشرك والكفر والعناد، فسوف يقولون: ياربنا هلَّا أرسلت إلينا رسولًا من قبل فنتبع آياتك الدالة علىٰ صدق رسولك ونكون من المؤمنين به وبما جاء به.

[٤٨] ولكن لما جاءهم الرسول ﷺ بالحق من عند الله جل وعلا افتعلوا التعجيز، وقالوا علىٰ سبيل التعنت: هلَّا أوتي محمد بمثل ما أوتي موسىٰ من معجزات حسِّية، وكتابٍ نزل عليه جملة واحدة! فقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: وهلَّ آيات موسىٰ جعلتكم تؤمنون بموسىٰ أو جعلت فرعون وقومه يؤمنون به؟! ألم يكفروا بما أوتي به موسىٰ؟!

ثم قال المشركون: إن القرآن والتوراة التي جاء بهما محمد وموسىٰ سحران تعاونا علىٰ إضلالنا؛ ثم قالوا: فنحن بكل ما جاء به محمد وموسىٰ كافرون؛ فهم يحاجون نبي الله بشيء هم لا يؤمنون به، وهذا يثبت أنهم لا يريدون الحق.

[٤٩] أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يطلب من قومه أن يأتوا بكتاب أهدىٰ وأفضل وأوضح من هذا القرآن العظيم وأفضل من التوراة، ووعدهم أن يؤمن به ويتبعه معهم، إن كانوا صادقين في زعمهم، ولكن هيهات.

والمقصود: إفحامهم وإقناعهم.

[٥٠] فإن لم يستجيبوا لطلبك يانبي الله بأن يأتوا بكتاب أهدىٰ وأفضل من القرآن؛ فاعلم يانبي الله أنهم إنما يتبعون أهواءهم، ولا أحد أشدُّ وأعظم ضلالًا ممّن يتبع هواه ويسير خلفه بغير هداية من الله، إن الله لا يُرشد ولا يهدي ولا يُوفِّق القوم الظالمين المجاوزين حدودَهم، المتبعين أهواءهم.

وهذه الآية تدل علىٰ أن من يتبع هواه لا يُذَمُّ إذا كان هواه لا يخالف هدي الله جل وعلا.

* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ
ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ
مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟
اللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى الْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ
وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾
وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ
نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا
مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن
قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ
بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى الْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾

[٥١] ثم أكد جل وعلا وأثبت أنه أنزل آيات هذا القرآن متتابعة بعضها يتبع بعضًا، وبين فيها ما جرىٰ علىٰ الأمم الماضية، ثم إن النبي ﷺ أوصله إلىٰ قومه وتلاه عليهم لعلهم يتذكرون فيتدبرونه ويعتبرون به.

[٥٢] ثم بين سبحانه أن الذين آتاهم الكتاب، أي: التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارىٰ من قبل نزول القرآن علىٰ محمد ﷺ، ولم يبدلوا أو يحرفوا، وكانوا منصفين خائفين من مقت الله؛ فإنهم يؤمنون بهذا القرآن ويؤمنون بمحمد ﷺ حسب ما هو مذكور عندهم.

[٥٣] ثم أخبر جل وعلا أن هذا القرآن إذا تُلي علىٰ أولئك المنصفين الذين آتاهم الكتاب، أي: التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارىٰ قالوا: صدقنا به، وعملنا بما فيه من الأوامر والنواهي، إنه الحق من عند ربنا، إنا كنّا قبل نزوله مستسلمين لله بالتوحيد منقادين له بالطاعة.

[٥٤] ثم بين سبحانه أن أولئك الذين آمنوا بالكتابين يُعْطَوْن أجرهم مرتين: أجرًا علىٰ إيمانهم بالكتاب الذي أُنزل عليهم من قبْل، وأجرًا علىٰ إيمانهم بالقرآن، ثم اتباعهم لنبيهم الأول واتباعهم لمحمد ﷺ، وصبروا علىٰ اتباع الحق، وعلىٰ أداء الطاعات واجتناب المعاصي.

وقد جاء في الصحيحين من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه مرفوعًا: ثلاثة لهم أجران، وذكر منهم: «**ورجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد** ﷺ»(١).

ثم ذكر جل وعلا صفات الأتقياء الصالحين من أهل الكتاب، ومن ذلك: أنهم يدفعون السيئة بالحسنة، فهم محسنون لكل أحدٍ علىٰ جميع الأحوال، وأنهم: ينفقون أموالهم في مرضاة الله جل في علاه، وابتغاء وجه ربهم الأعلىٰ.

[٥٥] ثم بين سبحانه أن من صفات هؤلاء الصالحين أنهم: إذا سمعوا من الجُهَّال شيئًا من اللغو والباطل، فإنهم يترفعون ويتنزهون عنه بأدب الإسلام والشرع، ولا يجارونهم، ولا يَنْزلون لمرتبتهم السيئة؛ بل يعرضون عنهم قائلين: لنا أعمالنا سنُجازىٰ عليها، ولكم أعمالكم ستُجازون عليها، سلام عليكم، فلن نسبكم أو نحاربكم؛ بل سنترككم لأننا لا نريد مصاحبة الجاهلين بالله وبدينه وشرعه.

[٥٦] واعلم يانبي الله أنك لا تستطيع أن تهدي للإيمان من تريد هدايته؛ لأن الهداية بيد الله تعالىٰ وحده؛ فهو الذي يهدي للإيمان من يشاء أن يهديه، وهو أعلم بالراغبين للهداية المستعدين لها؛ فلا تنزعج ولا تحزن لأن عمك أبا طالب وغيره لم يستجيبوا للإيمان.

[٥٧] وقال كفار قريش للنبي ﷺ: إنا نخشىٰ إنْ آمنا بك واتبعناك أن يتخطفنا العرب من بلادنا بالقتل والسلب، وبالأسر والنهب، أَوَلَمْ ير هؤلاء المكذّبون أنّا جعلناهم مُمَكَّنِين في بلدٍ آمنٍ لا يعتدي عليهم فيه أحد، وجعلنا في قلوب الناس مهابةً لهذا البلد الحرام؟!، أَلَمْ يروا أن هذا البلد - دون غيره من البلاد - تُجلَبُ له أنواع الثمرات والأطعمة، والأرزاق من كل حدب وصوب؟! ولكن أكثرهم لا يعلمون عِظَم ما هم فيه من النِّعم.

[٥٨] ثم أخبر جل في علاه أن كثيرًا من القرىٰ عاشوا في رغدٍ من العيش ورفاهية، فألهاهم ذلك عن توحيد الله والإيمان به وبرسله؛ فكان جزاؤهم الهلاك والدمار، وبقيت مساكنهم التي عاشوا فيها شاهدةً عليهم، لمْ يسكنها أحد بعدهم إلّا القليل من الناس، وكان الله جل شأنه هو الوارث لهم ولمساكنهم، وسوف يحييهم ويجازيهم علىٰ أعمالهم.

[٥٩] ثم بين جل وعلا أن حكمته وعدالته اقتضت أن لا يهلك القرىٰ حتىٰ يبعث في القرية والمدينة الكبرىٰ التي إليها يرجعون وعليها يترددون رسولًا يتلو عليهم الآيات البينات، ويقيم عليهم الحجَّة، ويدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، وترك عبادة ما سواه، ثم بين سبحانه أنه لم يهلك هذه القرىٰ إلّا في حال ظلم أهلها لأنفسهم بالشرك، وتجاوزهم لحدودهم بكفرهم بربهم، وتكذيبهم بأنبيائهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤).

وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ
ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا
فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ
مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ
﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾
فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا
مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ
﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ
ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

[٦٠] ثم بين سبحانه أن الناس ما أعطوا في هذه الحياة الدنيا من مُتع وملذّات؛ فإنما يتمتعون بها متاعًا قصيرًا زائلًا، ويتزينون بها زينةً لحظيَّةً ممزوجةً بالانقطاع والمنغِّصات؛ فلا تركنوا أيها الناس إليها، واعلموا أن ما عند الله من الثواب والنعيم هو خيرٌ وأفضل من نعيم الدنيا، وأبقىٰ وأدوم منه، أفلا تُعملون عقولكم فتفهمون هذه الحقيقة؟! فتُؤْثِرون الباقي علىٰ الفاني!

[٦١] هل يستوي عبدٌ مؤمنٌ وعدناه - وعدًا قاطعًا لا شكّ فيه ولا ارتياب - بدخول الجنة إنْ هو آمن واتّقىٰ وعمل الصالحات، بعبدٍ أقام وداوم علىٰ متع الحياة الفانية وملذاتها، وانشغل بها عن الآخرة؟! ثم هو يوم القيامة من المحضرين للحساب والجزاء؟! الجواب: لا يستويان أبدًا.

[٦٢] ويوم ينادي جل جلاله من أشرك معه في العبادة غيره، قائلًا لهم: أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي؟!!

[٦٣] فينطق رؤساء الضلال، وأئمة الغواية - الذين حقّ عليهم العذاب - قائلين: ربنا هؤلاء أتباعنا الذين أضللناهم ودعوناهم للغواية كما ضللنا نحن، فكلنا قد اشتركنا في الضلال، ونحن قد تبرأنا منهم ومن شركهم ومن أعمالهم، ما كانوا إيّانا يعبدون؛ بل كانوا يتبعون أهواءَهم، ويعبدون شياطينهم.

[٦٤] وقيل لهؤلاء المشركين تهكُّمًا وتقريعًا وتوبيخًا: ادعوا شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؛ لينصروكم وينقذوكم مما أنتم فيه، فنادوا عليهم، فلَمْ يستجيبوا لهم، ولم ينفعوهم، فعلموا حينها أنهم ليسوا علىٰ شيء، ثم عاينوا العذاب الذي سيحلّ بهم ويغشاهم، ولو أنهم كانوا يهتدون للإيمان والتوحيد لمَا حصل لهم ما حصل.

[٦٥] ويوم ينادي جل في علاه هؤلاء المشركين تقريعًا لهم: فيسألهم: بماذا أجبتم رُسُلي؟! هل اتبعتموهم وصدقتموهم؟ أم كفرتم بهم وكذبتموهم؟!

[٦٦] فثقلت عليهم الأجوبة، وغابت عنهم الحُجج، فلَمْ يستطيعوا جوابًا، ولم يسأل بعضهم بعضًا بماذا يجيبون، وبأي شيء يتكلمون.

[٦٧] فأما من تاب من المشركين وآمن بالله ووحده، وأفرده بالعبادة، وصدَّق إيمانه بالعمل الصالح؛ فأولئك من الفائزين.

[٦٨] واعلموا أن له جل في علاه مُطلق المشيئة، فيخلق ما يشاء، ويختار ويصطفي من يشاء، لم يكن لأحدٍ حقُّ المشاركة في الاختيار، تعالىٰ الله وتنزَّه وتقدَّس عن شرك المشركين وباطلهم.

[٦٩] يخبر جل وعلا أنه يعلم ما تخفي صدورهم وما يعلنون.

[٧٠] وأخبر سبحانه أيضًا أنه هو الله الذي لا معبود بحقٍّ إلا هو، له الحمد في الدنيا، وله الحمد في الآخرة، وله الحكم العدل، وإليه ترجعون؛ فيجازي كل نفس بما عملت، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ
﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ
يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ
فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ
وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ
فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ
وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ
وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

[٧١] وقل يانبي الله للناس جميعًا: أرأيتم لو جعل الله عليكم الليل دائمًا مستمرًّا إلىٰ يوم القيامة؛ فهل هناك إلهٌ غير الله يستطيع أن يأتيكم بنهارٍ فيه ضياء تبصرون فيه، وتزاولون فيه أعمالكم؟! أفلا تسمعون مواعظ الله سماع تدبر وتفكر؟!

[٧٢] وقل لهم يانبي الله: أرأيتم لو جعل الله عليكم النهار دائمًا مستمرًّا إلىٰ يوم القيامة؛ هل هناك إلهٌ غير الله يستطيع أن يأتيكم بليل تسكنون وتنامون وتستقرون وترتاحون فيه؟! أفلا تبصرون هذه النعم والآيات ودلالتها علىٰ قدرة الله وحكمته وعلىٰ وحدانيته جل في علاه! وعلىٰ إكرامه لبني آدم وتحقيق مصالحهم.

[٧٣] ومن رحمة الله بكم أيها الناس، وتفضله عليكم أن جعل لكم الليل لتسكنوا وتستقروا فيه، ثم جعل النهار يعقبه لتنتشروا فيه، وتسعوا فيه لقضاء حوائجكم، وبهذا تستقيم حياتكم، وتنتظم أموركم؛ لعلكم تعرفون نعمة الله عليكم، فتؤدون شكرها بتوحيده، واتباع رُسُلِه.

[٧٤] ويوم ينادي جل جلاله من أشركوا معه في العبادة غيره، قائلًا لهم: أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء لي؟!

[٧٥] وأحضرنا يوم القيامة من كلِّ أمّةٍ شهيدًا يشهد عليهم - وهو نبيهم - يشهد علىٰ ما كانوا عليه من الشرك والتكذيب -، ثم يقال لهذه الأمم المكذبة: هاتوا حجتكم، وبيِّنوا دليلكم الذي دفعكم للإقامة علىٰ الشرك وتكذيب الرسل، فعلموا حينها بطلان شركهم وكفرهم، وتبيَّن لهم حينها أن الدين الحقَّ لله بتوحيده وإفراده في العبادة، وذهب عنهم ما كانوا يختلقونه من الكذب والافتراء علىٰ الله وتكذيب رُسُلِه.

[٧٦] وفي آخر هذه السورة جاءت قصة قارون، حيث أخبر جل وعلا أن قارون من قوم موسىٰ ولكنه بغىٰ عليهم وصار من أعوان فرعون، ثم أخبر سبحانه أنه أعطىٰ قارون أموالًا وكنوزًا عظيمة ومن عظمتها أنه يثقل علىٰ العدد الكثير من الرجال الأشداء حمل مفاتيحها، وقد نصحه جماعته بنو إسرائيل عن الفرح والإعجاب بنفسه وماله، لأن الله لا يحب الذين لا يشكرون نعم الله عليهم، المعجبين بقدرتهم، الفرحين بها، الذين ينسبون الفضل لغير الله؛ حيث ينسبون الفضل لذكائهم، ولخبرتهم ونحو ذلك.

[٧٧] ثم قال له جماعته علىٰ سبيل النصح والإرشاد: واطلب ياقارون فيما أعطاك الله من هذه الأموال العظيمة ثواب الله والأجر في الدار الآخرة، وذلك بالعمل فيها بما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ في وجوه الخير، ولا تترك التنعم بما أعطاك الله من هذا المال في الدنيا بشرط أن يكون بالحلال وبدون إسراف، وعليك أن تحسن إلىٰ عباد الله بالصدقة والمعروف، كما أحسن الله إليك وأعطاك هذه الأموال الكثيرة، ولا تطلب البغي والظلم في الأرض بهذه الأموال؛ فإن الله لا يحب المفسدين.

ولكن قارون أصرَّ وعاند، وادعىٰ أنه حصل علىٰ هذا المال بذكائه وقدرته، واستمر علىٰ هذا العناد حتىٰ خسف الله به وبداره الأرض.

قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ
وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا
مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ
صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ
وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ
ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟
مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن
يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ
وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

[٧٨] فردَّ عليهم قارون في صَلَفٍ وكبرياء، قائلًا: إنما أُعطيت هذا المال بحذق ومهارة مني، وعلىٰ علم عندي بوجوه المكاسب، ومعرفة في أنواع التجارات والأرباح، فقال سبحانه ردًّا علىٰ قارون وعلىٰ ادعاءاته: أولم تعلم ياقارون أنَّ الله أهلك مَن هو أشدُّ منك قوَّةً، وأكثر منك مالًا ممن سبقك مِن الأقوام الظالمين؟! ثم بين سبحانه أن هؤلاء المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم، أي: لا يُسألون سؤال استعلام، وإنما يُسألون سؤال تقريع وتوبيخ وإفضاح لهم، لأن الله جل في علاه يعلم بها، كما أنها مسجلة ومعروفة لهم وللملائكة؛ وسوف يُعذَّبون عليها مباشرةً عذابًا شديدًا.

[٧٩] ثم أخبر جل شأنه أن قارون خرج ذات يوم علىٰ قومه وهو في أبَّهته وفي أعلىٰ ما يكون من الزينة والتجمّل، فانبهر به قومه لمّا رأوه، حتىٰ قال الذين يريدون زينة الحياة الدنيا وزخرفها: ياليتنا أُعطينا مثل ما أُعطي قارون من الكنوز ومن متاع الدنيا وزينتها، إنه لذو نصيبٍ كبيرٍ، وحظٍّ عظيم من الدنيا.

[٨٠] ولكن الذين أغناهم الله بالعلم الشرعي - فعلموا حقيقة الدنيا وحقارتها - قالوا لهؤلاء المفتونين بزخرف الحياة الدنيا: ويحكم ياقوم إن آثرتم هذا الزائل الفاني علىٰ الدائم الباقي، فاعلموا أن ثواب الله لِمَن آمن به وعمل الصالحات في الدنيا والآخرة خيرٌ وأفضل ممّا تتمنونه، ولا يُعطىٰ هذا الفضل والاحتساب والعمل بالنصيحة إلّا الصابرون علىٰ طاعة الله، وعن معصيته، وعلىٰ أقداره.

[٨١] ولمّا كان قارون في أعلىٰ درجات زهوِّه بنفسه وعُجبِه وخيلائِه؛ خسف الله به وبداره الأرض وغيّبه فيها، فما حال بينه وبين ما حلَّ به جماعته ولا خدمه ولا حشمه، ولم تنفعه كنوزه وأمواله، وما كان ممتنعًا من نزول العذاب به وإهلاكه.

[٨٢] وأصبح الذين تمنوا أن لهم مثل ما لقارون من المال والأُبَّهةِ يتعجبون ويقولون: إن الله يوسِّع رزقه علىٰ من يشاء، ويضيِّقه علىٰ من يشاء، وله في ذلك الحِكَمُ العظيمة، ولولا لُطفُ الله بنا ومنَّتُه علينا لخسف بنا وأهلكنا مع قارون لإعجابنا به وتمنينا مثله، واعلموا إن الكافرين الجاحدين لا يُفلحون ولا يفوزون في الدنيا ولا في الآخرة.

وقوله: ﴿وَيْكَأَنَّ﴾، كلمه تعجب واستغراب للمبالغة في التعجب.

[٨٣] واعلموا أيها الناس أن تلك الدار الآخرة وما فيها من نعيم الجنة سوف نجعلها ونخصُّ بها الذين لا يريدون علوًّا، ولا تكبُّرًا ولا تسلُّطًا ولا تعاليًا علىٰ المؤمنين، ولا يسعون في الأرض بالإفساد فيها بالشرك والمعاصي، والعاقبة المحمودة والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة للذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقايةً بالإيمان به، وفعل أوامره، وترك الشرك به، والبعد عن معاصيه.

[٨٤] ثم قال سبحانه: من عمل حسنةً واحدةً فإن الله يكافئه عليها، ويضاعفها له إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعافٍ كثيرةٍ فضْلًا منه وكرمًا جل في علاه، ومن عمل سيئةً بأن ارتكب ما نهىٰ الله عنه، فلا يجزىٰ إلّا بمثل هذه السيئة التي ارتكبها، ولا تضاعف عليه.

إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ
تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا
تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ
كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ العَنكَبُوت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ
لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟
لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن
جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

[٨٥] واعلم يانبي الله أن الذي أنزل عليك القرآن وفرض عليك تبليغه والتمسك به لمعيدك إلىٰ مكة، بعد أن تهاجر منها، فقل لهؤلاء المشركين: إن ربي وحده هو أعلم بالمهتدي، وبمن هو في ضلال واضح بيِّن، وسينال كل واحد منَّا ما يستحق إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر.

وقوله: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، فيها قولان: **الأول**: أي: لمعيدك إلىٰ مكة فاتحًا بعد أن أخرجك قومك منها. **والثاني**: أي: لمعيدك بعد البعث إلىٰ يوم القيامة، ومدخلك الجنة. وكلا القولين حق، فالأول تم، والثاني سيكون يوم القيامة.

[٨٦] وما كنتَ يانبي الله تتحرَّىٰ وتُؤَمِّلُ أن ينزل عليك هذا القرآن، لكن رحمة ربك أدركتك، وفضلُ الله عمَّك وأحاطك؛ فأنزل الله عليك هذا القرآن، فلا تكنْ عوْنًا للكافرين الجاحدين بحالٍ من الأحوال، وحاشاه صلوات ربي وسلامه عليه من ذلك.

[٨٧] ولا يصدّنّك الكفار يانبي الله عن آيات الله بعد أن أنزلها الله عليك فيُشغلوك عن تلاوتها، وإبلاغها، والعمل بها، وادعُ الناس إلىٰ التوحيد والإيمان، وترك الشرك والكفران، ولا تكونن من المشركين.

وهذه الآية أمر له ﷺ، وكذلك للعلماء والدعاة من بعده، لأن العبرة بعموم اللفظ.

[٨٨] وأخلص يانبي الله عبادتك لله بالتوحيد، فلا تدعُ مع الله إلهًا آخر؛ فإنه لا معبود بحقٍّ إلّا الله، وكل شيء هالك إلّا وجهه سبحانه جل شأنه، له سبحانه القضاء العادل النافذ في الدنيا والآخرة، وإليه مرجعُ الخلائق كلّها، فيُجازي كلًّا بعمله؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، نسأل الله الكريم من فضله، ونعوذ برضاه من سخطه.

وقوله: ﴿وَجْهَهُۥ﴾، فيها قولان: **القول الأول**: ذاته، أي: أن كل شيء يفنىٰ وتبقىٰ ذاتُه المقدسة، فأطلق الوجه وأراد به ذات الله جل وعلا، كقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦ -٢٧]. **القول الثاني**: أن البقاء للأعمال الصالحة التي أريد بها وجه الله، واختار هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية، فقال: قال طائفة من السلف: كل عمل باطل إلا ما أريد به وجه الله.

سورة العنكبوت

سورة العنكبوت مكيّة وآياتها تسع وستّون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يقول جل وعلا في بداية هذه السورة علىٰ سبيل الإنكار: هل يظن الناس بمجرد أنهم قالوا: آمنَّا بالله أن يتركوا بدون امتحان واختبار وابتلاء وتمحيص حتىٰ يُعلم الصادق في إيمانه من غيره؟.

[٣] ثم بين سبحانه وتعالىٰ لنبيه ﷺ أنه فتن المؤمنين السابقين أتباع الأنبياء واختبرهم، كأتباع نوح وهود وصالح وغيرهم عليهم السلام أجمعين، وكما أن الله سبحانه اختبر المؤمنين السابقين فسوف يختبر يانبي الله أتباعك المؤمنين، ليتبين الصادقون منهم ويجزيهم علىٰ أعمالهم الصالحة الأجر والثواب، وكذلك يتبين الكاذبون ويجزيهم علىٰ أعمالهم السيئة ويعاقبهم عليها.

وهذا يعني أنه لابد أن يُمحص الجميع ويمرُّون بابتلاءات واختبارات، وأن الحياة لا يتبين فيها المؤمن الصادق الخالي من أمراض الشهوة وأمراض الشبهة وضعف الإيمان والنفاق إلا إذا اجتاز الابتلاءات والمصائب بإخلاص وتجرد لربه. وهذه الآية نزلت في قوم مؤمنين في مكة قبل الهجرة تعرضوا لكثير من الأذىٰ وبعضهم فُتن في دينه، ولا شك أن المقصود بها كل المؤمنين إلىٰ قيام الساعة.

[٤] ثم قال سبحانه علىٰ سبيل الإنكار: هل يظن أهل الكفر والشرك وأصحاب المعاصي إمهالنا لهم، وتركهم غارقين في شهواتهم، فظنوا أنهم في معزل عنا وبعيدون عن رؤيتنا لهم ومتابعتهم، فبئس الظن الذي ظنوه وبنوا عليه حكمهم؛ فليعلموا أنه لا يفوتنا أحد منهم ولا من غيرهم.

[٥] واعلموا أيها الناس أن مَن كان مُحِبًّا لربه مشتاقًا للقائه؛ فليثبت علىٰ التوحيد ويواظب علىٰ العمل الصالح، فإن الأجل الذي حدَّده الله للبعث آتٍ لا محالة، والله هو السميع لأقوال عباده، العليم بنيَّات ومكنونات صدورهم.

[٦] ثم أخبر سبحانه أن من بذل وُسعَه وطاقته في إصلاح نفسه والانتصار عليها، وبذل وُسعَه وطاقته في جهاد الكفار وقتالهم، فإن نفع ذلك وثمرته يعود علىٰ نفسه، واعلموا أن الله غنيٌّ عن أعمال العالمين، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي.